

تفسير قوله تعالى: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

{ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } . في هذه الآيات أيضا حكم من الأحكام. وهي: العمل إذا وقع القتال بين المسلمين ، وبيان أن هذا القتال لا يخرجهم من الإيمان؛ بل إن وصف الإيمان باق معهم؛ فالله تعالى أمر بالإصلاح بينهم؛ إذا تقاتل طائفتان من المؤمنين، وكذلك لو تقاتل اثنان؛ اثنان من المؤمنين؛ فإنه يجب الإصلاح بينهما، { وَإِنْ طَائِفَتَانِ } يعني: فرقان أو قبيلتان من المؤمنين { اقْتَتَلُوا } أي: حصل بينهم ما يسبب القتال، أو ما يوجب الاختلاف إلى أن يؤدي ذلك إلى الاقتتال؛ فمهمة بقية المؤمنين السعي في الإصلاح، السعي في الصلح بينهم؛ حتى يزول ذلك الخلاف، وينقطع ذلك القتال. هذا قد لا يقال؛ إنه خاص بالقتال؛ بل إذا حصل أية خلاف، وخيف أنه يقع منه غير القتال؛ من آثاره كالمقاطعة والتفاجر والتباغض والسباب ونحو ذلك؛ فعلى البقية أن يسعوا في الإصلاح بينهم؛ أن يسعوا في الصلح بين المسلمين؛ حتى تزول تلك العداوة، وتلك المقاطعة؛ مثلا إذا حصل بين طائفتين تهاجر بسبب كلام، أو بسبب تهم أو بسبب أموال. هؤلاء يقولون: هاتوا ما أخذتموه بغير حق، والآخرون يقولون: إنها لنا، وإنما أخذناها بحق؛ فيحصل بينهم البغضاء والتقاتل، أو لا يصلون إلى القتال، ولكن يحصل بينهما الهجران؛ أي: التهاجر والتعادي والتقاطع. وقد يكون أيضا بينهم قرايات ورحم؛ ومع ذلك يتقاطعون وهم أقارب فيكون ذلك من الفتن؛ فالله تعالى أمرنا بأن نسعى في الصلح بينهما: { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا } هكذا أصلحوا بينهما. الصلح هو السعي في المؤاخاة ، وإزالة ما بينهما من العداوة، والحرص على تأليف القلوب فيما بينهم، وجمعها، وإزالة العداوة والشحناء والقطيعة. هذا من أفضل الأعمال، ذكره الله تعالى؛ قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا دَات بَيْنَكُمْ } أصلحوا فيما بينكم، إذا رأيتم بعض إخوانكم الذين هم من المؤمنين؛ رأيتموهم قد تقاطعوا فأصلحوا بينهم؛ حتى يتأخوا؛ كذلك قال تعالى: { لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ } يعني أو سعيًا في الصلح بين الناس؛ فإن ذلك مما يحبه الله تعالى، ومما يرغب فيه، ونحو ذلك من الآيات. أمر الله تعالى في هذه الآيات بالصلح بين المتخاصمين والمتقاتلين، وفي آية أخرى: أمر بالصلح بين الزوجين قال الله تعالى: { وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَنْعُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ بَرِدَا إِحْلَاحًا تُوفَّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا } يعني: إذا كان الزوجان يريدان الإصلاح؛ وفق الله تعالى بينهما بواسطة الحكمين؛ كذلك أيضا قال تعالى: { وَإِنْ أَثْرَاهُ حَاقَتْ مِنْ بَعْلَاهَا تَشْوَرًا أَوْ عِزًّا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا } ؛ فراها بعضهم: أن يَصْلَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) الصلح خير، فيسعى في الصلح بينهما -بين الزوجين- إذا كان بينهما شيء ممن العداوة حتى تثبت حالتها، وحتى يصلح ما بينهما. الصلح خير. فهذا دليل على أن الشرع جاء بالسعي في الصلح. وجاء في الحديث: قول النبي صلى الله عليه وسلم: { الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا } ؛ أنه يحث على الإصلاح بين المسلمين، وجاء في حديث: { أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرخص في شيئا مما يقال إنه كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها } . هكذا أخبر بأن الصلح يكون بين المسلمين، وأنهم إذا سعوا في الصلح؛ في الحرب مثلا ولو كان ذلك فيه شيء من الكذب، أو كذلك سعوا في الصلح بين المسلمين يجوز الكذب يجوز للسعي في الصلح أن يقول شيئا يقرب به بينه وبين الآخر؛ فيأتي إلى هؤلاء ويقول لهم: أمركم بالصلح؛ فإن خصومكم قد تنازلوا، وقد أحبوا منكم أن تتنازلوا عن بعض الشيء؛ مع أنهم ما تنازلوا، ثم إذا التزموا وقالوا: نعم، نحن نتنازل عن بعض حقنا، جاء إلى الآخرين ورغبهم وقال: تنازلوا كما تنازل هؤلاء فهذه إقراراتهم قد تنازلوا؛ حتى تصلح القلوب، وحتى تجتمع الأئدة. فكذا إذا حصل بينهم قتال أو خيف إن يحصل الفساد؛ فإن أهل البلد أو بقية القبيلة أو بقية المسلمين أو القضاة أو الأمراء ونحوهم يصلحون؛ يصلحون بينهم؛ يسعون في الإصلاح { فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا } . { فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ } ؛ إذا قدر أن إحداهما امتنعت من الصلح، قالت: لا نقبل، ولا بد أننا نقاتلهم ونشن الحرب عليهم؛ فإنهم أخافونا وإنهم اعتدوا علينا وبخسونا جفنا وظلمونا وعبرونا بكذا، وأعابونا بكذا وكذا؛ فلا نرضى بل لا بد أننا نقاتلهم، أو نستمر في التهاجر بيننا وبينهم، أو ما أشبه ذلك. قوله: { فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي } البغي هي العدوان، البغي هو مجاوزة الحد ؛ وهو مما حرمه الله؛ قال الله تعالى: { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَأَلْتَمِةً وَالَّذِينَ بَدَّلُوا نُبُؤَهُمْ بغير الحق؛ فهؤلاء هم الذين يقاتلون، يقاتلهم بقية المؤمنين. كيف يكون القتال؟ إذا احتيج إلى القتال الأكبر الذي هو القتال بالسيف، قوتلوا إلى أن يرجعوا إلى أمر الله، وإن استولى عليهم عذبوا بغير القتل؛ فيجلدون مثلا ويسجون، وينكلون ويؤخذ من أموالهم تنكيلا وما أشبه ذلك؛ فيكون هذا هو قتالهم؛ حتى يرجعوا { حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ } يعني حتى ترجع هذه الطائفة الممتنعة { فَإِنْ فَاءَتْ } ورجعت فعند ذلك أصلحوا بينهما { فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ } ؛ لا تميلوا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } . العدل هو المساواة بينهما، وعدم الميل والحيف؛ فإذا كانت إحدى الطائفتين أقرب لكم نسبًا؛ فلا تميلوا إليها؛ اعدلوا؛ يقول الله تعالى: { وَلَا تَجْرِمَكُمْ } يعني: لا يحملنكم { سِتَانِ قَوْمٍ } يعني: بغضهم. أي: لا يحملنكم بغض قوم؛ { عَلَى الْأَعْدَاءِ عَدْلًا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } ويقول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ } يعني: أدوا الشهادة لله، { وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ } يعني ولو كانت الشهادة يعود ضررها على أنفسكم، أو على ذوي أقربكم؛ فهكذا إذا سعوا في الصلح؛ فإنهم يصلحون بينهما بالعدل ولا يجوزون في الحكم، ولا يظلمون هؤلاء لمصلحة خاصة. { فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا } والقسط أيضا: هو المساواة؛ يقول الله تعالى: { وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } ؛ في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: { تَمَّ أَنْقَرُوا وَأَمْنُوا تَمَّ اتَّقُوا } وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } فالمحسنون والمقسطون والعادلون يحبهم الله تعالى. { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } ولو تقاتلوا فلا يخرجهم تقاتلهم عن كونهم مؤمنين؛ فهم إخوة لكم جميعا؛ يعني الأخوة هاهنا الأخوة الإيمانية؛ يعني إنما المؤمنون جميعا إخوة لكم في الإيمان. { فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } جعل هؤلاء إخوانكم، وهؤلاء إخوانكم؛ مع أنهم يتقاتلون فيما بينهم؛ فلم يخرجهم هذه المقاتلة عن كونهم إخوة؛ فهم إخوانكم يعني هؤلاء وهؤلاء، وكذلك بعضهم إخوة بعض، نقول لهؤلاء: ارجعوا إلى إخوانكم واصطلحوا معهم، ونقول لهؤلاء: راجعوا أنفسكم واصطلحوا مع إخوانكم؛ فأنتم جميعا إخوة في الإيمان؛ وأخوة الإيمان أقوى قد تكون أقوى من أخوة الولادة، أقوى من أخوة النسب ونحوه؛ وذلك لأن الإيمان لا تزول الأخوة معه حتى يزول سببه وهو الإيمان؛ فما داموا مؤمنين فإن الوصف يجمعهم، كونهم إخوانا في دين الله تعالى؛ أكد ذلك قول الله تعالى: { قَاصِبِحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا } وقوله صلى الله عليه وسلم: { المؤمن أخو المؤمن } وقوله: { لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه } وقوله: { كونوا عباد الله إخوانا } فكل ذلك دليل على أننا نسعى في الصلح بين إخواننا؛ فنستفيد من هذه الآيات؛ أنه إذا تقاتلوا فإنهم يصدق عليهم أنهم مؤمنون؛ { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أنهم جميعا ياقون على الإيمان. ونستفيد: أن قتال المؤمنين بينهم حرام ؛ وذلك لأنه يفت في عضد المؤمنين، والواجب أنهم يجتمعون، ويجعلون قوتهم لأعدائهم. ونستفيد: أنهم إذا تقاتلوا؛ فلا يجوز تركهم، بل نسعى في الصلح بينهم؛ حتى تزول تلك العداوة. ونستفيد: أن الصلح قد يكون بالرأي، ولو كان فيه شيء من الكذب ونحوه. ونستفيد: أن من عتا وتجر واعتدى وبغى بغيا ظاهرا أنه يقاتل؛ يقاتله بقية المسلمين إلى أن يرجع. ونستفيد: أنهم إذا رجعوا حرصنا على تثبيت الأخوة بينهم. ونستفيد: وجوب العدل بينهم، وأنا لا نميل في الصلح مع إحدى الطائفتين؛ بل نحكم بينهم بالعدل، ونسوي بينهم، ولا نميل مع هذه دون هذه. ونستفيد: أن أخوة الإيمان سببها الإيمان { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } . ختم الله تعالى الآية بأمر بتقواه: { وَاتَّقُوا اللَّهَ } يعني بعم ذلك التقوى في طاعته من حيث العموم، وتقوى الله تعالى في إخواننا المؤمنين؛ بل علينا أن نؤلف بينهم؛ فنتقي الله في تركهم على هذه العداوات والمقاطعات. ونستفيد: أن هذا يكون سببا للرحمة؛ السعي في الصلح يكون سببا في رحمة الله تعالى لمن سعى في الصلح بين المسلمين. نكتفي بهذا والله أعلم.